مناقشات

شريعة الهدم في "الإنجيل" الضائع!

بقلم سامي عطفه

[الى الاستاذ عبد الله القصيمي]

يجب ان نشكر الكتّاب دائماً ، اجوادهم واشرارهم على السواء . فأما الكاتب الجيد فلأنه يجعلنا نهتدي الى معالم الطريق ، وأمـا الكاتب السيء فلأنه يجعلنا نفكر جيداً قبل ان نتبعه . ويفرض واجبنا علينا ، كقراء ، ان نمعن النظر والتفكير في ما يعرضه كاتب أمامنا من نظريات وافكارقبل ان ننجر وراءه ، وراء مايلقي به الينا من علياء تأملاته ومن ذرى افكاره في ثوب من الحماس والتقوى الفكرية ، وباسلوب كاسلوب المعلم « نيتشه » القصد منه السيطرة التامة على عقلية القارىء ، باسلوب المعلم الذي يوهمنـا بأن ما يقدمه لنا حقيقة وضعية بدهية . وخاصة اذا كانت نظرة الكاتب هذه تعالج اوضاعنا القومية من اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وعلى الاخص اذا كان ما يعرض له ، خلقنا ، وتاريخنا ... كما فعل الاستاذ عبدالله القصيمي* . كما يقضي واجبنا ان نفرق بين المعالجة المخلصة المتفهمة وبين المعالجة الكيفية الشكلية في هذا الظرف التاريخي الذي يحمل الى المجتمع العربي تأثيرات شتى واتجاهات متعارضة منها القديم ومنها الحديث ، فاذا كان يمكن وصف القديم بالرجعية والجمود فيجب ان نرى ايضاً ، ان الحديث قد ينسجم وقـد لا ينسجم مع قضيـة الامة ، وقد تكون الغاية منه الاصلاح الفعلي والتطوير الحقيقي للواقع المتجمد وقد يكون ايضاً ، هذا الحديث مجرد تآمر مبطن مغلف بالافكار والنظريات ، ضد عوامل التكوين القومي التي مـا تزال ضعيفة لينة الساعد .

وعلى كل حال ، يجب الا يغرب عن بالنا ، ان المثقفين العرب ، اذا استثنينا وجود المناهج الحزبية وتجاهلنا انضواء اكثر المثقفـين تحت الوية احزاب مختلفة ، هم الذين يحملون لواء التقدم الاجتماعي والنهضة العربية ، غير أن نظرة بسيطة الى هؤلاء ، واكثرهم ذوو ثقافة عالية حصلوا ثقافتهم على يد الغرب ، ترينا أن مثقفينا يختلفون في درجة وعيهم للقضية العربية ، فبعضهم قد تمثلوا الثقافة الغربية ولم يفقدوا طابعهم العربي ، بل نقول أنهم يحيون تجربة الامة العربية، وفي هؤلاء ستتعرف الامة على ابنائها الصادقين المكافحين . وبعض المثقفين العرب تركـوا رؤوسهم في اوروبا واتوا بأجسامهم الى الامة العربية يحملون نظرة شائهة مخطئة وهؤلاء لن يعرفوا ابداً نقطة الانطلاق الحقة ، وبعض مثقفينالم يكتفوا بالخطأ، وربمالادركوا الواقع ، ولكنهم اتونا يحملون افكاراً هجينة معادية ، وهؤلاء هم عنصر التخريب الحقيقي.إن مثل هؤلاء يعتبرون ان فكرة القومية العربيةفكرة فاشية عدوانية وحتى مخربة . فماذا يكن في هذا الاعتبار ؟ انني اؤكد ان مثل هؤلاء لا همّ لهم ولا غاية لهم إلا ان ينسفوا الفكرة القومية ويفتحوا المجتمع العربي لقوى الهدم السائدة في الحضارة القوميـة وإلا ان ينسفوا التحصينات الدفاعية الضعيفة التي اقامها المخلصون في وجه القوى اليهودية العالمية ناسين عمداً ان التاريخ يؤكد ان الدولة العربية القومية لم تثبت يوماً انها قوة مخربة ابدا، بل على العكس كانت قوة خير وبركة للشعوب كما سأذكر فيما يأتي بعد قليل .

ويدعي هؤلاء ، انهم ديمقراطيون ، حقـاً انهم ديمقراطيون باقوالهم فحسب ، بورجوازيون تماماً في اوضاعهم واسس تفكيرهم. وان فعلهم لا يقل عن فعل القوى اليهودية المستترة وراء نفوذ الرأسمال الاميركي اليهودي في الوطن العربي ، من حيث نشر الافكار التقدمية التحررية المظهرولكن المتآمرة على الخلق العربي والمثل الوطنية العربية وقوي الروح بالفعل . ونحن لا نستطيع إلا ان نقدر تأثير هؤلاء «الثقات» في تدمير الامةالعربية التي لا تملك أي جهاز فعلي للمقاومة .

***

ربما كان على الانسان ان يبدأ بنقد نفسه ثم بنقد اصدقائه ، قبل ان يبادر بالهجوم على اعدائه . وما ذلك الا ليعرف العربي ان عليه قبل ان يبادر الى النضال ان يختبر منهجه والارض التي يضع عليهـا قدميه ، اي القاعدة التي عليه ان ينطلق منها . وفي سبيل ذلك أرى طلائـع معركة فكرية ستدور رحاها عمـا قريب بين العاملين كان كل منهم يتحاشاها جهده ، وعـلى المناضل العربي ان يفتتح المعركة بنفسه ، ولكن بروح ايجابية صارمة صابرة. واذا كانت درعه ضعيفة فعليه ان يعتمد على ساعده .

علينا ان نوقف اصحاب الافكار والنظريات في ارضنا قليلاً ، فـلا يكون مرورهم مرور الكرام بل سيضطرون الى الاقامة بيننا ريثما نقلب ما في جعبهم ، ونقف على ما في طويتهم ، ذلك لأننـا في الحقيقة ننتظر الأفكار الجديدة الواعية لنأخذ بها .

من اصحاب الأفكار الجديدة الصريحة الاستـاذ عبدالله القصيمي ، في مقاله الذي نشرته « الآداب » في عددها الماضي وهو يدعي انـه يقدم لنا : « انجيلاً » جديداً . لكن ينبغي الاشارة قبل البدء الى انني ارى في القصيمي مزيجاً من الأخلاص والخطأ ، والحماس والضياع ... ومع ذلك فقد أخذت في ردي عليه بالحقائق التاريخية والتمحيص الدقيق مـع قلة في الابتداع ، وبعد عن التعصب .. ولنر على كل حال نصوصه .

يقول الاستاذ القصيمي : « الشعوب اربعة : شعب يبتكر الحضارة ، وشعب يقلدها ، وشعب ينفعل بها ، وشعب لا يبتكرها ولا يقلدها ولا ينفعل بها ... فمن أي الأربعة نحن ؟ . » إن الجديد في هذا التقديم هو تجاهل هويتنا ، فهل هنالك من العرب او غير العرب من لا يعرف هوية الشعب العربي الحضارية ، رغم تلك الجولات العبقريـة ورغم الدراسات العديدة التي تثبت كون العرب من الشعوب المبدعة في المجال الحضاري .

* راجع مقاله « اقتباسات من انجيل لم تعرفه المجامع » المنشور في العدد السابع من الآداب ١٩٥٥ .

ثم يقول : « التفكير والاعتقـــاد حقيقتان متعارضتان . فالذين يأخذون الامور بالاعتقاد لا يفكرون والذين يأخذونها بالتفكير لا يعتقدون . والتفكير صورة من صور الخلق والعطاء . أمـــا الاعتقاد فاسلوب من اساليب الاستسلام والعبودية فالمفكر خـــالق والمعتقد مخلوق » ثم : « الاعتقاد نوع من الجبن والعجز كما أن التفكير شجاعة وقوة ، فالمفكر انسان جريء مقتحم يمضي في المجاهل ويناضل ضد الخوف والوقوف ... اما المعتقد فجبان وقاف يخشى الاقتحام ويرضى بما كان خوفاً ممـــا قد يكون » .

ان رأي الكاتب أن التفكير والاعتقاد حقيقتان متعارضتان ، رأي بحاجة الى الدرس الطويل والتروي خاصة وانه رأي قديم من جملة الآراء التي عالجت قديماً وحديثاً العلاقة بين الفكر والعقيـــدة ، وأثارت جدلاً طويلاً بين اصحاب الفكر . فما هو التفكير وما هي العقيدة ، ومـا هي العلاقة بينهما ؟.

أما التفكير ، فهو اتجاه ملكة الانسان العقلية اما الى التأمل التجريدي واما الى البحث الموضوعي . ففي التأمل يبحث العقـــل موقف الانسان في الوجود العام ، من حيث طبيعة الوجود الداخلي للانسان ومن حيث طبيعة الوجود الخارجي العـــام ووجود التلازم والتناقض بينهما ، ودأب العقل تشكيل المفاهيم الطبيعية والأنسانية ، وتنظيم قوى الانسان لتستطيـــع ان تسيطر في مجال الطبيعة بذاتيتها الحية . وأما البحث الموضوعي فهو يتعلق بحاجات الانسان الروحية والمادية وما يشبهها من السلسلة المعروفة. والتفكير يرتسم على كل حال في البحث عن الحقيقة الوجودية ، الزمانية والمكانية، وعن الحقيقة الانسانية بما لها من أثر في الوجود وما لهـــا من امتداد في الزمان والمكان . واثر التفكير الانساني هو في الواقـــع زيادة تحقيق الوجود الانساني مقابل قوى الطبيعة، وتطوير المكان بتغيير شكله والافادة من قواه بتسخيرها . وارتسام هذا التطوير في الزمان ، وان الانسان لا يستطيع السيطرة على الزمان إلا بجعله يحمل اثر الانسان في تطوير الطبيعة وفي تطوير الحياة. والزمان لم يكن معروفاً لولا ان الانسان طبعه بنشاطه واعطاه صفة التاريخ . إن الفكر البشري يصوغ من الطبيعة مفاهيم تكون اساساً لتحديد الطبيعة ، وكذلك فانـــه يحدد نفسه بالمبادىء . فالمبادىء العقلية العلمية تقابل المفاهيم المنظمة . ولكن العقل أيضـــاً يحدد اكتشافاته فيجعلها على مراحل . وكل مرحلة تشكل نظاماً فكرياً ، وهنـا نصل الى السؤال التالي : هل يؤمن العقل بصحة ما اكتشف ؟ فـــاذا كان الجواب ايجاباً وهو الثابت ، صح لنا ان نقول بأن العقل البشري المفكر يعرف الايمان ، ويحيط ايضاً ما يؤمن به بهالة من القداسة . فيكون بذلك قد توصل الى العقيدة ، ربما كانت هذه المحاكمـــة غير معقولة، ولكن الاكثر استحالة على العقل هو ان نقطع الصلة بين الفكر والعقيدة .

والعقيدة ما هي ؟ انها خلاصة لحلقة كاملة من التفكير ، فهي انعكاس لنشاطية العقل وابداعه في الكشف عن قوانين الوجود ؛ انها قيم متآلفـــة منسجمة في دورة اخلاقية . فكل عقيدة تعكس اذن خلاصة من الفكر ، فالمسيحية مثلاً نظام كامل للوجود فيها من الفكر بمقدار ما في الفيثاغورثية المحدثة والافلاطونية المحدثة اللتين حاولتا السمو الى مستوى العقيدة الدينية، ولقد امضى الانسان في التأمل آلاف السنين قبل ان يكتشف الدين . إن ديانة الابتدائيين عبارة عن خضوع واستسلام لقوى الطبيعـــة ، ذلك ان ديانة الابتدائيين لم ترتق الى مستوى المفاهيم الكاملة . أمـــا العقيدة فهي نتيجة اختمار طويل للفكر الانساني وهي تمتاز بأنها مفاهيم كاملة ، كما ان الانسان يمتاز عن الاحياء الباقية بأن له عقيدة . واعتقد ان الاشارة الى محاولة الفكر رفع نفسه الى مستوى العقيدة دليل عـــلى الصلة بين كل من الفكر والعقيدة ، هذا افلاطون يخلق عالماً كاملاً ويضع اسسه في جمهورية ويطلب الى الناس الايمان بها . ثم هذا ابيقور يخلق ديانته الابيقورية . واذا تجاهلنا كل الفلسفات نكتفي بالاشارة الى الماركسيـــة فحسب ، إن الماركسية نظرة الى المستقبل وهي عقيدة تحاول ان تسير الحياة بقوانينها ولا تختلف في ذلك ، من وجهة النظر هـــذه ، عن المسيحية او الاسلام باعتبارهما نظرتين الى المستقبل ...

وهذا الاستعراض السريع جداً يبين لنا ان العقيدة ليست الا التحقيق الواقعي ، أو محاولته ، للتفكير المجرد . فـــلم يكن هنالك مفكرون لم يروا في افكارهم ديانات جديدة ، وان من الخطـــأ ان نفصل بين الفكر والعقيدة لحساب غاية ما ، او ان نهبط بمستوى العقيدة ، ذلك ان اوهام الانسان نتاج حضارات طويلة الامد كأفكاره وهذه الأوهام هي التجلي الثاني لنشاطية العقل .

ولا ادري الى اي اساس يستند زعم الكاتب بان الاعتقاد اسلوب من اساليب العبودية ، وانه نوع من الجبن والعجز .. وان المعتقد جبان وقاف وان المعتقدين ضعفاء مغلوبون !. يبدو لي ان العكس هو الاصح. فالمعتقد يستمد من ايمانه بعقيدته عزيمة لا يفلها الحديد ، وينبغي لنا ان نتساءل هل كان الحواريون جبناء ضعافاً ! وهل كان فرسان الفتح العربي اتباع النبي العربي خائري العزيمة ، عاجزين جبناء !! ان هذا لنوع من الكذب على التاريخ . هذا الى انه تجدر الملاحظة بان الايمان بالافكار الجديدة ، لا الأفكار الجديدة ، هو ما قد يغير وجه التاريخ فالمسيحيون هم الذين قضوا على وثنية العالم القديم وانهوا دور الحضارات القديمة . والحق ان ظهور المسيحية هو الذي ينبغي ان يعتبر نهاية العصور القديمة. اما المؤمنون بالدين الاسلامي فقد كانت حركتهم اوضح حيث غيروا جغرافية الارض السياسية وخلقوا حضارة جديدة هي الحضارة العربية . ولكن ربمـا كان الكاتب يعني ان جبن المعتقد هو ركونه الابدي الى عقيدته وان شجاعة المفكر هي في هدمه للعقيدة السائدة .. ولكن ما الذي يفعله المفكر بعد هذا ؟ والجواب هو أنه يقيم عقيدة جديدة تغدو هي الاخرى سائدة ، ويكون المفكرون بهذا اذن كالاطفال يبنون بيوتهم من الجص ثم يهدمونها لإعادة بنائها ، هذا الى ان على الناس بالنسبة لهذا الرأي ان يعرضوا عن العقائد الدينية والسياسية ، وان على ركب البشرية ان يقف ، لانه ما من سير الا وراء غاية ، والغاية هي العقيدة.

***

لا شك في ان المرء لن يتمالك نفسه من الابتسام وهو يقرأ جواب الكاتب على سؤاله « .. من اي الاربعة نحن؟» بما يلي : «لم يقفز التطور الفكري العربي في مداه كله الى القمة التي ينطلق منها المفكرون المردة الهدامون القديم ليقيموا مكانه طوراً جديداً من اطوار التاريخ . وتزداد الابتسامة وضوحاً عندما يقرأ : «كان العرب دائماً يخلقهم التاريخ ولم يبلغـــوا ان يخلقوا التاريخ. لقد ظلوا عبيدا ولم يتطوروا الى آلهة . »

ان العرب في حالهم الحاضرة ضعفاء جاهلون وفاقدون لكل ما تتمتع به الامم الناهضة من حياة ومثل وتضحية ، ولقد اثبتت التجارب مع ذلك ان الامة العربية تحاول ان تبدأ . ومهما قلنا عن العرب في الحال الحاضرة فاننا نكون قد صورنا الواقع تقريباً ، ومع ذلك فليس هنالك ما يبرر ادعاءات

— التتمة على الصفحة ٧٧ —

شريعة الهدم في «الانجيل» الضائع !

– تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ –

الكاتب المحترم على التاريخ العربي ، فما يلاحظ في تلك المقاطع مثل « كان العرب دائماً .. ولم يبلغوا .. ولقد ظلوا عبيداً ..» من صيغ الماضي يدل على ان المؤلف يهاجم العرب ليس في الظروف الحاضرة بل يهاجمهم في التاريخ وفي الماضي ! . ولنقارن الآن اقواله تلك باقوال هنري مارتن عن معركة بواتيه في مؤلفه « تاريخ فرنسا الشعبي »: « لقد تقرر مصير العالم في تلك المعركة ، فلو غلب الفرنج فيها لكانت الارض قبضة محمد .. ولخسرت اوروبا والدنيا مستقبلها ، فليس النشاط الذي يحفز الناس الى التقدم مما تجده في عبقرية المسلمين .»١ ما هي الفروق بين احكام مارتن المتعصب ضد التاريخ العربي وبين احكام القصيمي ؟

ومع ذلك لنر ما يقوله العلامة غوستاف لوبون : «ولكن لنفرض جدلاً ان النصارى عجزوا عن دحر العرب وان العرب وجدوا جو شمال فرنسة غير بارد ولا مماطر كجو اسبانية فطابت لهم الاقامة الدائمة به ، فماذا كان يصيب اوروبا ؟ كان يصيب اوروبا النصرانية المتبربرة مثل ما اصاب اسبانيا من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبي العربي ، وكان لا يحدث في اوروبا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمي ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرجت اوروبا بالدماء . ويجب ان يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقاً ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرخ العالم مارتن من « ان النشاط الذي يحفز الناس الى التقدم ليس مما تجده في عبقرية المسلمين » فزاعم مثل تلك ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يعلم ان التمدن اللامع حل بالبلاد التي خضعت لاتباع الرسول محل الهمجية ، وان النشاط الذي يحفز الناس الى التقدم لم يكن قوياً في امة مثل قوته في العرب .»٢

ومثل هذا كلام لوبون عن اسبانيا : «لم تكن اسبانيا ذات حضارة تذكر قبل الفتح العربي حضارة ذات فصارت حضارة ناضرة في زمن العرب ، ثم هبطت الى الدرك الاسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب . كانت اسبانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الاجلاف في زمن القوط . ولم يكد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها ، فاستطاعوا في اقل من قرن ان يحيوا ميت الاراضي ويعمروا خرب المدن ويقيموا فخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالامم الاخرى ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في اوروبا زمنا طويلا .»٣

لنعد الى التاريخ فنحكم على ما فعله « عبيد التاريخ » في اسبانيا خاصة ، وهي البلد المحتل غير العربي ، على يد اسرة خالصة العروبة هي الاسرة الأموية. لقد وجدوا فيها الطبقية الجائرة ، فالاشراف والكهنة يملكون الاراضي ويتمتعون بحماية الدولة وطبقة متوسطة تدفع وحدها الضرائب ثم رقيق الارض الذين لم يكن يمكن وصفهم بأنهم بشر ، فماذا فعل العرب ، قبل الثورة الفرنسية بأحد عشر قرناً؟ لقد صادروا املاك الاشراف واملاك الكنيسة واسلموها الى رفيق الارض بعد تحريرهم ، ثم اعانوا الزراعة فاقاموا السدود والترع والقناطر واصبح نظام الري افضل بكثير مما كان ايام الرومانيين ، كما تقدمت الصناعة الاندلسية واقيمت للبلاد علائق تجارية مع جميع الدول ، وكان الاسطول الاندلسي الضخم يجوب البحر المتوسط ، وتقدم العمران بتقدم الحياة الاقتصادية وبتطوير النظام الاجتماعي ، فصار من كان رقيقاً هو واليهودي والمسيحي وخاصة رجال الدين ، يتمتع بنفس حقوق العربي الى جانب انهم كانوا يدفعون ازهد ضريبة عرفت منذ فجر التاريخ حتى عصرنا «المدني ». وازداد عدد المدن والقرى وعرف السكان عهداً جديداً من الامان والحرية والعدالة . وتقدمت العلوم والفلسفة والادب ، حتى صارت الاندلس عدا عن كونها نعيماً ارضياً المنارة الحية التي تشع في طول اوروبا وعرضها ، فقد كثر رواد الجامعات الاندلسية من الاوروبيين وتخرج على يدابن رشيد اكثر من سبعين الف طالب . وقد قال مؤلف « العرب في اسبانيا » ستانلي لان بول « في ذلك العهد ، بينما كان الفلكيون العرب يرصدون السماء ويعينون مجرى الكواكب ، كان الاساتذة والطلاب في اكسفورد يتجادلون بشأن جواز الاستحمام بالماء او عدمه . » ويقول بعد ان يصف قصر الزهراء ومغاني قرطبة « في ذلك العهد ، كانت جدتنا السكسونية الموقرة تجلس أمام كوخها الخشبي وهي تغزل الصوف . » هذا ويستطيع القارىء الكريم ان يلاحظ الفرق بين اسبانية « المستعمرة العربية » وبين مستعمرات الغرب في عصرنا ، حيث المستعمر يسلب مستعمرته ثروتها الطبيعية ، وينشر الفوضى والجهل والظلم ، بل ويعمل جاهداً على القضاء على خلق ابناء المستعمرات وخنق كل شعور بالكرامة لديهم ، هذا العصر الذي اوحى للقصيمي بأن الحضارة استغلال واستعمار وخروج على كل خلق ونبل ، وأن قومه العرب عبيد تاريخ مجردون من الخلق والنبل والشجاعة ، جاهلاً جهلاً اكيداً طابع حضارة قومه الرفيع من نبل في العطاء ورفع الشعوب الى مستوى لائق من الحضارة والرقي . ولي ملاحظة ثانية وهي ان العرب مروا بالهند مرور الكرام ، غير ان الهند مع ذلك تأثرت بالحضارة العربية واخذت عنها ، من دينها وفلسفتها وفنونها ، وللوقوف على هذه الحقيقة انصح للكاتب ان يرى بعض الصور المأخوذة لبعض المعابد الهندية التابعة للمدرسة العربية في المعمار كمعبد « بندران » في مترا . وباب علاء الدين في دلهي « ومزار اكبر » في اسكندرا ومنارة قطب في دلهي واخيراً « تاج محل » في اغرا . هذا اذا تجاهلنا كل ما في الوطن العربي من آثار باقية تدل على ان العرب قد خلقوا التاريخ .

من العبث حقاً أن يقول امرؤ بعد هذا ، عن العرب « انهم عبيد تاريخ وانهم لم يتطوروا الى آلهة » كما ان من العبث ان يقول القصيمي بأن الطغيان ورجال الدين من عوامل الهدم في المجتمع العربي . ان العلة في الكاتب انوقر كما قلت أنه يتكلم دائماً عندما يشتم العرب بصيغة الماضي ولو انه تكلم بصيغة المضارع لقلنا « حقاً انه رجل شجاع » ولقلنا عنه انه مناضل يسعى لتخليص شعبه من ورطته الحاضرة . وعلى كل حال لنتأمل ما سماه بالطغيان العربي الذي رافق تاريخ الأمة . ولنتساءل : هل كان هنالك طغيان حقاً ؟! . هذه هي بعض الأمثلة الموثوقة: هذا اولاً خطبة الخليفة ابي بكر الصديق : « ايها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينوني وان أسأت فقوموني ... الخ ». ومثل هذا قال الخليفة

---

١ نقلا عن حاشية في كتاب « حضارة العرب » للدكتور غوستاف لوبون ص ٣٨٨ الترجمة العربية .

٢ حضارة العرب ص ٣٨٩ .

٣ حضارة العرب – ص – ٣٣٧ .

الثاني . اما الخليفة الرابع فقد كان سموحاً الى درجة اللين ديمقراطياً الى درجة الضعف عادلاً الى درجة الفسوة . ولم يكن اي من هؤلاء يقف على رأس دكتاتورية طبقة معينة ! فهل هذا طغيان ؟ وهل كان من الطغيان ألا يلبس الخليفة طيلة العام إلا ثوبه الوحيد العاري من الاوسمة والعاري من كل شيء إلا من الرقع ؟! . ثم لنتأمل هـذه الامثلة التي وردت على السنة غير عربية ، هذا الراهب ميشو يقول في كتابه (رحلة دينيـة الى الشرق) : « ومن المؤسف ان تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الاحسان بين الامم ، واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض اى معتقد عليهم بالقوة » (١) ويقول الدكتور لوبون :

« وقد اسلم كثير من النصارى ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شيء وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة ورعايتها فزاد عدد اليهود كثيراً في اسبانية .

« وكان عرب اسبانية ، خلا تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما الى ذلك من الخلال التي اقتبستها الامم النصرانية باوروبا منهم مؤخراً ، فتؤثر في الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة»(٢)

ويذكر العلامة لوبون مقدار تأثير الخلق العربي على طبائع الاوربيين فيقول : « يقولون إن الدين يهذب الطبائع والى هذا اذهب احياناً وان لم يكن في التاريخ سوى ادلة قليلة على ذلك وانما الذي لا ريب فيه هو ان قواعد الفروسية التي جاء بها العرب أدت الى اصلاح تلك الطبائع اكثر من جميع التعاليم الدينية(٣)

نعود ثانية الى الامثلة العربية ، لأنها في الحقيقة اقوى واجـدى في دحض هذا الزعم الذي اخـذ به الكاتب . نسرد قصتين موثوقتين عن الخليفة الثاني . أما القصة الاولى فهي تتعلق باقامة الحد بالضرب على الملك الغساني جبلة بن الايهم وذلك لضربه سوقياً داس طرف ازاره في حفل الطواف حول الكعبة . أما القصة الثانية فهي استقدام الخليفة محمداً بن عمرو العاص ووالده عمراً امير مصر . استقدمهما لأن مصريا شكا محمداً الى الخليفة لأنه ضربه في السباق ، فاذا كان ؟! لقد اقيم الحـد على ابن امير مصر بالضرب بالمثل من قبل الخصم ، ثم تلك القطعة التي ذهبت مثالاً عن العدالة العربية : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهـاتهم احراراً » ان تلامذة المدارس يعرفون هذه الامثلة فهل جهلهـا عن عمد حقاً ؟! . ومن المؤسف ان نقول : نعم ! . نعم لقد عرفت بعض العهود الطغيان ولكن متى ؟ أفي العهد العربي ؟ كلا . لقد تم الطغيان بعد ان انحسر الظل العربي عن الامبراطورية على يد المغول الذين احرقوا كل كتاب وجدوه في بغداد وعاثوا بالبلاد فساداً . ليس المغول عرباً ليحمل هؤلاء مسؤولية بربرية المغول والمماليك ، وكذلك ما ان حـل العهد التركي حتى حـل بالبلاد الدمار والبؤس وعم الشقاء ، لان هؤلاء البرابرة لم يستطيعوا السير بالحضارة العربية رغم انهم اعتنقوا الاسلام . نعم ما كاد العهد التركي يطل حتى تبدل العدل ظلماً والتسامح طغياناً وضربت المدن من جـديد وهدمت البيـع والكنائس حتى ذهب المثـل العربي « لن ينبت العشب على ارض يطؤها تركي » ان كل عربي يدفعه شرفه ونبله وخلقه الرفيع الى التبرؤ من كل ما قام به الاتراك والمغول من تخريب وطغيان . وليس هـذا ادعاء ، فالعالم اجمع يدرك هذه الحقيقة .

بقي ان نقول بأن اتهام التاريخ العربي بالطغيان والتخريب معناه اتهام هذا التاريخ بانه تاريخ وضيع ؛ ولما كان هذا مخالفاً لابسط الدروس التاريخية التي يتلقاها صغار التلاميذ ، فأنا لا يسعني الا ان اقول بأن هذا الاتهام يخبيء وراءه حركة تآمر ضد التاريخ العربي . إن تجريد التاريخ العربي من العدل والتسامح معناه تجريده من الخلق ، وهذا العمل قام به الشعوبيون كما يقوم به حالياً اليهود لقتل روح المقاومة في الشعب العربي ، والماركسيون الشيوعيون لهدم الكيان القومي للأمة العربية ، ولا يكون مثل هذا الهدم ناجحاً إلا عندما يهدم مثل الامة الرفيعة التي تجلت في تاريخها .

لننتقل بعد هذا الى الدين الذي اعتبره القصيمي من عوامل التخريب ، ومتى تكلمنا عن الدين في الحضارة العربية عنينا بذلك الاسلام . فمـا هو الاسلام ؟! إن الاسلام لا يختلف في جوهره الاخلاقي عن المسيحية . وهو دين منزل للبشرية ، فليس اذن ديانة خاصة كالدين اليهودي . وهو يـأمر بالتسامح والاحسان والعدل والعناية الصادقة العملية بالمنفيين من طبقات الشعب المساكين والايتام ... والمساواة كاملة تامة في الاسلام . ثم ماذا بعد ؟ لم يسيء العرب تطبيق احكام الشرع الاسلامي في مجالاته الاجتماعية ، وإن التعاون تام بين الاسلام والخلق العربي .. وهنا يشهد غوستاف لوبون بأن قد كان لليهودي والمسيحي نفس حقوق المسلم في الدولة ورعايتها . وما كان الاسلام في العهد العربي الا رسالة انسانية وإلا اخاء بين الشعوب . هذا القول ليس تمدحا للاسلام والمسلمين وانما هو بيان موجز جداً بالحقيقة ، فكيف اذن بهذه القيم يمكن اعتبار الاسلام عاملاً من عوامل التهديم . أما بعد انقضاء العهد العربي فقد اصاب الأسلام في الحقيقة بعض التحول ، واحرى بالذي لا يفهم اللغة العربية وخاصة لغة القرآن إلا بعد التفسير أن لا يتمثل العقيدة الاسلامية رغم بساطتها ، وألا يتمثل بصورة خاصة الخلق العربي ، وهذا ما جرى بالفعل في عهد من ورثوا العرب في السيادة والسياسة ، فالبرابرة من مغول ومماليك وترك لم يستطيعوا هضم العقيدة فهضموا الطقوس التي لا تحتاج الى كثير ذكاء ليؤديها المرء . وفي مثل هذا العهد الاسود التركي خاصة اصبح الاسلام يعني الطقوس الخاصة به ، واصبحت العقيدة الاسلامية تعني ذلك الخلق البربري الذي امتاز به الترك والذي يعرفه شيوخنا الذين عاصروه . فالعقيدة الاسلامية لم تنحط ولم تتجمد وانما الناس في عصر الانحطـاط المظلم انحطوا عن مستوى الاسلام كعقيدة كما انحطوا عن مستوى الخلق العربي وهذه المصيبة لم يتفرد بها الاسلام وحده ، بل عرفتها المسيحية ، وهي فكرة سامية ، في القرون الوسطى . وينتج من ذلك ان العرب ليسوا مسؤولين عن المظالم والارهاب والتعصب ، الميزات التي امتازبها العهد التركي ، وكان الاسلام في الحقيقة من العوامل الثلاثة التي مكنت العرب من الاحتفاظ بطابعهم القومي وحده : الريف العربي واللغة العربية والاسلام .

وبعد هل يعني الكاتب ان الاسلام عقيدة رجعية مهدمة تعوق العرب من التقدم ؟ . هذا قول مردود فالاسلام لا يتحمل وحده تبعة الانحطاط في عصرنا الحاضر ، وبعد هل استغنى الاوروبيون الذين اعجب (بعالقتهم) كاتبنا الذكي عن المسيحية ؟ كلا ، لقد كانت المسيحية بمثلها الرفيعة منهلاً للفنانين والمبدعين في عصر النهضة . اما رجال الدين الاسلامي ، فانهم في الحقيقة لا يشكلون طبقة ، لذلك فان مهاجمتهم كطبقة لها كيانها المميز من ملكية واعتبارات شرف .. الخ نوع من انواع التلاعب . انهم افراد يتصفون بما يتصف به شعبنا جميعه من تأخر وجهل وعدم ادراك للمرحلة الحاضرة من حياة الامة العربية ، ووجودهم ليس اخطر من وجود ساستنا ومثقفينا وعامتنا و (فنانينا) . وخطرهم لا يعادل

(١) حضارة العرب – الترجمة العربية . حاشية ص ١٦٢
(٢) نفس المرجع صفحة ٣٤٢ – ٣٤٤
(٣) نفس المرجع ص ٣٤٧

قسطاً من خطر الدعايات الماركسية واليهودية اللتين تستغلان جميع مظاهر الضعف للعمل على هدم الكيان القومي . بل هو لا يعادل خطر المجلات المصورة التي تحمل لواء (التحرر) .

لو اراد الكاتب معالجة الوضع فيما يخص رجال الدين لقال مثلا : ينبغي فصل الدين عن الدولة ، وجعل الدولة قومية . وتجريد رجال الدين من نفوذهم السياسي الاجتماعي عن الشعب باحياء المثل الوطنية في الشعب وفتح سبيل التقدم الحقيقي امامه . لو قال ذلك لوقفت في صفه ولقلت معه: حقاً ينبغي ان نصلح رجال الدين بأن نجعلهم يختصون بالدين وحده .

لكن الا يحمل لنا رأي الكاتب في مجال الدين و (ضرورة هدمه) قبساً يرينا حقيقة ما تزال شاردة عن ذهن المواطن العربي . ذلك ان رأيه يمت الى الماركسية بصلة قوية . فالماركسية التي هي بحق فلسفة المادية التاريخية ، تعتبر ان الدين – العقيدة – مثل كل الفلسفات المثالية التي ينبغي تهديمها . ان الماركسيين لا يؤمنون بالدين ويرونه عثرة في طريق نشاطهم ولذلك فانهم يتخلصون منه بهدمه .

***

عندما نقلب ما تبقى من « آيات » الانجيل الضائع ، نرى اشادة الكاتب بالحرية والديمقراطية ، ومهاجمة عنيفة للحكم الاستبدادي الديكتاتوري العسكري . وهذه اشياء معهودة وحتى العامي يرددها بنفس الحماس . وانا بطبيعة الحال لا اقف في صف الحاكم المستبد الا انني ارى من واجبي فضح بعض الحقائق حول هذه « النغمة الجديدة » واول هذه الحقائق هي ان شعبنا العربي الذي يعاني التجزئة السياسية في حاجة الى عملية تطوير هائلة. وهذه العملية لا تتوقف على شكل معين في الحكم ، بل تتوقف على العمل الصادق . ان الشعب العربي يصفق للعهد العسكري في مصر حالياً ، مع انه من الناحية الشكلية لم ينشأ نشأة ديمقراطية ولم يبال بالشكل الديمقراطي . ومع ان كل عناصر التخريب في الامة العربية التي تدعي انها ديمقراطية لم تكل من مهاجمته ، فلماذا ؟ هل لأن الشعب العربي يرضخ للطغيان والاستعباد؟ كلا ، بل لأن هذه الديكتاتورية قد قامت بخطوات جريئة ، منها القضاء على « الملكية الديمقراطية » ومنها التحرر من الاستعمار ومنها القبض على عصابات التجسس الصهيونية ، ومنها الاصلاحات الاجتماعية في تحرير الفلاح المصري والعامل المصري والانشاء في الحقل الاقتصادي ، ثم قيادة النضال العربي باخلاص وصراحة لا نجدها حتى في صحف المعارضة الحرة . ولا شك في ان محطة صوت العرب قد ساهمت في رفع انظار الشعب العربي الى قضيته وخاصة في المغرب العربي ، ويجب الا ننسى أن مصر هي صاحبة الميثاق العربي الذي هو خطوة واسعة نحو الوحدة القومية ، وان مصر هي التي تعمل على رفع نير الاستعمار عن الشعب العربي وتناضل ضد ربطه بالاحلاف العسكرية الاستعمارية ، وعندنا هنا في سوريا تحققت الديمقراطية في سيادة الشعب . وخرج نواب يمثلون نضال الشعب ، ومع ذلك فان من المؤكد ان الحكومة السورية عاجزة عن مسايرة الخطوات السريعة التي تخطوها مصر في ميدان السياسة العربية ، رغم الارادة الطيبة في الخطوات التقدمية ، ورغم ان الحكومة الحالية قد صعدت الى الحكم لمحاربة الاحلاف العسكرية ولتقريب الوحدة العربية .

غير أن الديمقراطية التي يدعو لها الكاتب لا تحمل هوية او سمة فهي اعتبار لفظي فحسب « كالسلام العالمي ». إن هناك كتلتين في العالم تنادي كل منهما بالسلام العالمي ، والذكي هو الذي يعرف ان هذا السلام نظري ويفهم بأنه دعاية سياسية فحسب ، كذلك الديمقراطية والحرية . فكتلة الدول الاستعمارية تدعي أنها ديمقراطية حرة ، وكتلة الدول الشيوعية تدعي أنها ديمقراطية حرة . ولكن علينا ان ندرك ان ديمقراطية الاولى انما هي الديمقراطية البورجوازية وان حريتها هي حرية الرأسمال اليهودي العالمي . كما ان علينا ان نفهم ان ديمقراطية الثانية هي ديمقراطية البروليتاريا ، وان حريتها ليست الا حرية البروليتاريا كطبقة في ان تسلب البورجوازية الرأسمالية حريتها ، اي ان هذه الحرية ليست الا دكتاتورية البروليتاريا نفسها . فما هي الديمقراطية ، وما هي الحرية اللتان يريد الكاتب أن نرتديهما ؟!

***

لقد درست كما يرى القارىء الكريم صفحات « الانجيل الضائع » وخلصت منه الى النتائج التالية : وهي ١ – تكران الحضارة العربية وجحود قيمتها الرفيعة كحضارة انطبعت بطابع الخلق العربي من كرم في رفع مستوى الشعوب واعطائها الرقي والمدنية والرخاء العظيم .

٢ – مهاجمة الكاتب للتاريخ العربي مهاجمة لا تستند الى ثقافة صحيحة واعية ، وان محاولته عزل الشعب العربي عن حضارته وتاريخه لا تعني سوى قطع جذور هذا الشعب إذ ان الشعب كالهرم قاعدته في تاريخه الماضي وقيمته في تاريخه المستقبل ، وان نسف القاعدة يعني نسف كل امكانية حضارية في الشعب .

٣ – مهاجمة الخلق العربي والمثل العربية القومية عن طريق مهاجمة التاريخ العربي والدين الاسلامي ، وان تقويض الخلق القومي في امة معناه نشر الفوضى في صفوفها بشكل يسلمها لتحكم اليهود والدعايات الباطلة .

٤ – إن معالجة وضع الامة العربية الراهن ، لا تستند الى وعي عميق لقضية الامة ، فهو لم يهاجم المفاسد الحقيقية من اهمال للطبقة العاملة الدنيا (البروليتاريا) ولطبقة الفلاحين البائسة ، ان الابقاء على هاتين بحالهما الحضارة لا يكون القصد منه الا استغلال هاتين الطبقين لحساب الشيوعية واليهودية ، مع انهما طبقتان تستند اليهما الأمة ومن العار ان تهضم حقوقهما بشكل يدفع بهما الى الشيوعية العالمية ، وبشكل يخجل فيهما الخلق الصحيح والمقدسات القومية الرفيعة .

هذا وان اي عامل في هذا الحقل عليه ان يدرك ، ان واجب الحكومات العربية نشر الروح العسكرية في صفوف الشعب وحل مشاكل الطبقات الدنيا برفع الضغط المادي عن عاتقها . وان اسلامها الى الفقر والبطالة معناه اسلامها الى الدعايات غير الفاترة في نشاطها والتي لا تهدف الا الى هدم الكيان القومي ، كما ان التخلص من براثن اليهودية لا يكون الا في انشاء الاقتصاد العربي انشاء كاملا وطرد الرساميل اليهودية من الوطن . إن تربية الفضائل الاخلاقية القومية وحل مشاكل الطبقة العاملة ونشر الروح العسكرية في صفوف الشعب العربي ، كفيل بحل قضية فلسطين اولاً وتحرير المغرب العربي ثانياً ، وهذا هو واجب الدول العربية : تربية الكيان القومي بدعمه اقتصاديا وبجهود طبقات الأمة جميعاً فالحكم القومي يجب الا يعترف بالطبقات ، وإلا فان المجال سيكون فسيحاً امام من يدعي انه عربي ديمقراطي تقدمي .

سلمية — **سامي عطفه**